﴿سورة الليل﴾

وفيها ثلاث مسائل :

المسألة الأولى: بم أقسم الله تعالى فى أول السورة ؟ وعلام أقسم ؟

والجواب: من المعلوم أن أسلوب القسم يتكون من أربعة أركان وهى: الأول أداة القسم، والثانى المقسِم، الثالث المقسَم به، الرابع المقسَم عليه فأما الأداة فهى الواو وهى حرف القسم وأداته، وأما المقسِم فهو الله ﷻ، وأما المقسَم به فهو ثلاثة أشياء: ﴿**وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ(١)**﴾ أى عمَّ ظلامه الخلائق، ﴿**وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ(٢)**﴾ أى ظهر نوره للخلق فاستضاءوا به وانتشروا في مصالحهم ﴿**وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ(٣)**﴾: هنا معنيان: إذا كانت ﴿**مَا**﴾ موصولة كان هذا قسم من الله ﷻ بنفسه الكريمة ، فهو يقسم بنفسه القادرة الحكيمة والموصوفة بأنه خالق الذكور والإناث، وإن كانت ﴿**مَا**﴾ مصدرية كان قسماً من الله ﷻ بخلقه وللذكر والأنثى (وكمال حكمته في ذلك أن خلق من كل صنف من الحيوانات التي يريد بقاءها ذكرًا وأنثى، ليبقى النوع ولا يضمحل، وقاد كلاً منهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة، وجعل كلاً منهما مناسبًا للآخر، فتبارك الله أحسن الخالقين)[1].

يتبقى لنا الركن الرابع وهو المقَّسم عليه وهو قوله تعالى: ﴿**إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ(٤)**﴾ فقد أقسم الله ﷻ بالليل والنهار وقدرته بخلق الذكر والأنثى على أن عمل العاملين وسعى المكلَّفين مختلف باختلاف نياتهم وإيمانهم وقربهم أو بعدهم من منهج الله ﷻ وهدى رسوله ﷺ.

ولذا جاء التقسيم بعد ذلك فى هذه السورة المباركة بين فريقين: ﴿**فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (٥)**﴾، و﴿**وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ (٨)**﴾.

المسألة الثانية: ما دلالة قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ(٧)﴾ و﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ(١٠)﴾ على قضية هل الإنسان مسير أم مخير ؟

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ص ٩٢٦ .

والجواب: لا بد أولاً أن نعلم أن معنى اليسرى كل معانى الخير وقيل الثواب وقيل الجنة،والعسرى عكس ذلك، وأما تيسير الله ﷻ العبد لليسرى وكذا تيسيره للعسرى فلها علاقة بمعنى اليسرى ومعنى العسرى، فمن رأى أن اليسرى هى الجنة فيكون تيسير الله ﷻ العبد لليسرى بأن يدخله الجنة بسهولة ويسر وإكرام، وأما من فسر اليسرى بأعمال الخير فالتيسير لها هو تسهيلها على المؤمن فلا يعتريه كسل ولا رياء، وكذا يمكن القول فى تيسير العسرى للعبد الكافر الذى اختار طريق العصيان فأوكله الله تعالى لنفسه وتركه لشيطانه فجعل المعصية أرجح وأحب وأيسر إليه من الطاعة. وليس فى هذا دليل على إجبار الله ﷻ للعبد، بل إن الله ﷻ قد بين فى هذه السورة أن العبد التقى أعطى واتقى وصدق وأقبل على الله ﷻ بكل جوارحه فلما علم الله ﷻ منه الإقبال عليه أعانه ويسر له أسباب الطاعة وأعانه عليها ثم تقبلها منه – بلطفه وكرمه – وأثابه عليها الرضا والجنة ، والعكس صحيح فالعبد الشقى أعرض عن الطريق وتنكب السبيل وأخلد إلى الأرض واتبع هواه فلما علم الله ﷻ منه هذا الصدود وذلك الإعراض أوكله إلى نفسه ونزع عنه توفيقه فكانت أسباب المعصية وطريق النار أيسر إلى قلبه وأحب إلى نفسه من جهاد الهوى والتزام طريق الهدى وقد قال ﷻ: ﴿**وَلَا يَحِيقُ ٱلمَكرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهلِهِ**﴾ (١).

المسألة الثالثة: دار خلاف بين علماء السنة وبين جهال الرافضة (الشيعة) حول قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلأَتقَى(١٧) ٱلَّذِي يُؤتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ (١٨)﴾ ... فما سبب هذا الخلاف ؟

الجواب: أجمع المفسرون على أن هذه الآية الكريمة قد نزلت فى أبى بكر الصديق ﷺ وخالفهم فى ذلك الروافض الشيعة، حيث قالوا: إنها نزلت فى على بن أبى طالب ﷺ فما الأرجح من القولين ؟

الراجح عند أهل العلم أنها فى أبى بكر ويستدلون على ذلك بدليل عقلى لطيف ألا وهو: أن الله ﷻ حدد الأفضلية عنده بالتقوى، فقال: ﴿**إِنَّ**

(١) سورة فاطر / من الآية ٤٣ .

أَكرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتقَىٰكُمۡ﴾[1]، وهنا وصفت الآية المذكور بأنه الأتقى أى أتقى الناس – بعد الأنبياء– ومن ثم يكون هذا الموصوف هو خير الأمة بعد نبيها ﷺ وهو ما عليه إجماع الأمة بأن خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ هو أبو بكر الصديق، لكن هنا يعترض الروافض فيقولون بل إن خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ هو على بن أبى طالب ، وبالتالى لا بد من الرجوع إلى الآية التى بعدها حتى تفصل فى هذا الخلاف وتحدد مَن المقصود هل هو أبو بكر أم على ؟

فلو نظرنا إلى الآية التى بعدها لوجدناها تصف هذا التقى المذكور فى الآية بأنه ﴿**وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعمَةٖ تُجزَىٰٓ(١٩) إِلَّا ٱبتِغَآءَ وَجهِ رَبِّهِ ٱلأَعلَىٰ(٢٠)**﴾ فهذا الوصف الذى تحدثت عنه الآيتان ينطبق على أى من الصحابيين الكريمين ؟

هو – بلا شك – لا ينطبق إلا على أبى بكر الصديق وحده من دون الخلق أجمعين، فما لأحد من الناس فضل على أبى بكر، بل لأبى بكر الفضل على الناس جميعاً حتى رسول الله ﷺ لم يكن له على أبى بكر فضل دنيوى بل فضل دينى، وكان لأبى بكر فضل السبق إليه وإنفاق ماله عليه والهجرة معه، ولكن لرسول الله ﷺ الفضل على الناس جميعاً بأن هداهم الله ﷻ إلى الدين به .

أما على بن أبى طالب فكان فضل النبى ﷺ عليه دنيوياً ودينياً، حيث كان النبى ﷺ يربيه فى حجره صغيراً وينفق عليه من ماله ويكسوه ويطعمه من طعامه، وكان الرسول منعماً عليه نعمة دنيوية يجب جزاؤها فلا يصلح أن ينطبق عليه وصف هاتين الآيتين .

ولذا أجمعت الأمة المسلمة أن أفضلها بعد نبيها هو أبو بكر الصديق، إذ له الفضل على الناس جميعاً، بإنفاق ماله على النبى ﷺ، والذود عنه، والسبق فى الإسلام إليه حتى كان أول من أسلم من الرجال، فرضى الله

(١) سورة الحجرات / من الآية ١٣ .

تعالى عنه وأرضاه، بيد أن بغض الشيعة لأبى بكر وعمر وتكفيرهم للأصحاب الرسول ﷺ هو الذى دفعهم إلى رد الآية ودفع فضلها عن أبى بكر الصديق وقد خابوا وخسروا .

قال الصابونى: (ونحن مع حبنا لعلى وتكريمنا له، نقول: لا يمكن حمل هذه الآية على على ﷺ لأن الله تعالى ذكر في وصف هذا الأتقى وصفا لا ينطبق عليه، وهو قوله: (وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعمَة تُجزَىٰٓ) أى ليس لأحد عليه نعمة حتى يكافئه عليها، وعلى كان في تربية النبي ﷺ لأنه أخذه من أبيه، وكان يطعمه ويسقيه ويكسوه ويربيه، وكان ﷺ منعما عليه نعمة يجب عليه شكرها والجزاء عنها، أما أبو بكر ﷺ فلم يكن للنبي ﷺ عليه نعمة دنيوية، بل كان أبو بكر ينفق على الرسول ﷺ، فثبت أن الآيات نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ لا في على ﷺ، وأن (أبا بكر) هو الذي اشترى بلالا وأعتقه، لا على رضي الله عنهما جميعا، ورزقنا شفاعتهما ومحبتهما، فكل الصحابة عظماء أجلاء، ولا يجوز أن نغمط أحداً فضله ولكن الحق أحق أن يقال ويتبع !) .

ثم إن سبب نزول الآية يبين أنها نزلت فى أبى بكر حين عاتبه أبوه على أنه ينفق ماله فى عتق العبيد والجوارى من الضعفاء الذين أسلموا فعذبهم المشركون، وقال له: "لو اشتريت بهذا المال رجالاً أشداء يدافعون عنك ويحمون ظهرك"، فرد عليه الصديق بقوله: "ما منع ظهرى أريد وما أريد إلا وجه الله تعالى" فنزلت الآية، وقال الفخر الرازى والقرطبى وابن كثير وغيرهم: (أن بلالاً كان (عبداً) لعبد الله بن جدعان فسلح على الأصنام فشكا إليه المشركون فعله فوهبه لهم ومائة من الإبل ينحرونها لآلهتهم، فأخذوه وجعلوا يعذبونه في الرمضاء وهو يقول: "أحد. أحد"، فمر به رسول الله ﷺ وقال له:"ينجيك أحد أحد"، ثم أخبر رسول الله ﷺ أبا بكر أن بلالاً يُعذب في الله، فحمل أبو بكر رطلاً من ذهب فابتاعه به، فقال المشركون: "ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليدٍ كانت لبلال عنده"، فنزل ﴿**وَمَا**

لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعمَة تُجزَىٰ(١٩) إِلَّا ٱبتِغَآءَ وَجهِ رَبِّهِ ٱلأَعلَىٰ (٢٠)﴾، وقال ابن الزبير وهو على المنبر: " كان أبو بكر يشتري الضعفة من العبيد فيعتقهم، فقال له أبوه: "يا بني لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك"، فقال: "ما منع ظهري أريد" فنزلت هذه الآية).

وإنا نُشهد الله ﷻ أنا نحب أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وسائر الصحب الكرام والتابعين الأعلام ونسأل الله ﷻ أن ينفعنا بهذا الحب يوم اللقاء، ونُشهد الله ﷻ أنا نكره من يكرههم ونعادى من يعاديهم .

لطيفة تحسن الإشارة إليها :

ورد ذكر أبى بكر الصديق ﷺ فى سورة الليل فى ثلاثة عشر موضعاً حاولت حصرها فيما يلى: بضمير الغائب وتقديره "هو" فى قوله تعالى: **﴿فَأَمَّا مَن أَعطَىٰ﴾**، ثم بالضمير نفسه فى **﴿وَٱتَّقَىٰ﴾**، وكذا فى قوله: **﴿وَصَدَّقَ﴾**، ثم بالضمير المتصل بالفعل فى محل نصب مفعول به **﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِليُسرَىٰ(٧)﴾**، ثم بالضمير المستتر تقديره "هو" فى محل رفع فاعل وذلك فى قوله: **﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾**، ثم بالاسم الظاهر **﴿ٱلأَتقَى﴾**،وبضمير الفاعل المستتر وتقديره " هو" فى قوله تعالى: **﴿يُؤتِي﴾**، ثم أُشير إليه بالضمير المتصل بالاسم فى قوله: **﴿مَالَهُۥ﴾** وبالضمير المستتر وتقديره (هو) والذى هو ضمير مبنى فى محل رفع فاعل وذلك فى الفعل **﴿يَتَزَكَّىٰ﴾**، ثم بالضمير المتصل بالظرف فى كلمة **﴿عِندَهُۥ﴾**، ثم بالضمير المضاف إلى كلمة "رب" فى قوله: **﴿رَبِّهِ﴾**، وأخيراً بالضمير المستتر المبنى فى محل رفع فاعل **﴿يَرضَىٰ﴾**.... والله أعلى وأعلم .

مع التنبيه على أن هذه الآيات وإن كانت قد تحدثت على أبى بكر الصديق – رضى – لكنها صالحة للتطبيق على كل من اتصف بصفاته وتخلق بأخلاقه وسار على دربه، فإن العبرة كما قال أهل التفسير بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .. والله أعلم .